

### الناحية العلمية والأدبية

التمهید: عصر الإثمار باسم حرية التفكير في العلوم والفنون.  
العلوم العقلية في هذا العصر: الفلسفة وابن سينا والغزالي..  
الفقه ومشاهير الفقهاء.. علم الكلام وأعلامه.. التنجيم والفلك  
والرياضيات، ثم الطب وظواهرها في مجتمع القرن الخامس.  
العلوم النقلية وميزتها في هذا العصر: القرآن والحديث..  
التاريخ.. البلاغة والنحو.. الأدب وخصائصه.. ذوو اللسانين،  
مانسب إلى «النظام» من شعر.

obbeikandi.com

## تقديم:

لقد كان الدين - كما انتهينا من قبل - هو الهدف للدولة فى تلكم القرون الأربعة، باسمه تغزو وتفتح فى الخارج، ومن أجله تقضى على المارقين والخارجين على الحكم فى الداخل، دون تفريق بين الدين والدولة، أو تمييز بين السياسة والعقيدة.. إلى أن تبلورت فكرة السيادة الدنيوية ونضجت نظم الحكم فصار الدين والدولة توأمين يسيران جنباً إلى جنب.. وليساً شيئاً واحداً فهما توأمان يجب أن يعيشا معاً، وأن يتعاونوا لإسعاد الرعية، وأن تجعل الحكومة من الأول عماداً لها ليكون فلسفتها فى الحكم ولتنظيم شئون الناس وضممان مصالحهم، وعلى الحاكم أن يتعهدهما بالرعاية والعناية على السواء من أجل بقائهما وخير المجتمع الذى يحلان فيه.

ومادام الدين من الدولة بمنزلة التوأم، وهو الذى يرشد الفرد إلى واجباته نحوها ونحو نفسه وخالقه.. فلا بدّ من دراسة أحكامه وأصوله ولا بدّ له من تعلم فروعِهِ وما يمهدّ لها من علوم وفنون، فى اللغة والنحو والبلاغة، فقد ورث هذا القرن علوماً لسانية وأخرى عقلية كانت جميعها فى خدمة الدين وإيضاح فروعِهِ وأصوله، بحيث تحوّل بعضها إلى معتقدات كأنها جزء من الدين أو أحد مظاهره.

وبينما كانت الحرب سجّالاً عبر الحدود من أجل نشر الدين كانت فى

الداخل نهضة فكرية تعنف حيناً وتخف أحياناً تظهر تارة باسم الدين . . وأخرى باسم العلم، وإن شئت فسمّها علمية دينية أو دينية علمية أو ثورة الفكر العالم المتدين . ولقد تحدثنا آنفاً عن مظاهر هذه الثورة باسم الدين، والآن سنتقل إلى الحديث بـيـجاز عن ثورة العقل العالم باسم حرية التفكير جاهدین تلمس الخطوط البارزة التي تمثّلت في هذه الفترة من عصر الإثمار . . عصر الوزير «النظام» . . إذ لم يكن العصر الذي عاش فيه وزيرنا - كما يخيل إلينا - عصر تجديد في الاجتماع والعلم والسياسة - وإنما كان عصر جنّي واستثمار .

ومما يكشف لنا عن تخطى الفكر دور النضج إلى عهد الإثمار في هذا العصر تلك المكتبة الضخمة في العلوم والفنون والآداب، والتي حوت من مؤلفات القوم ودواوين الشعر عدداً هائلاً، وقد جمع بين تركيز الفكرة وعمق النظرة، وغزارة المعلومات كما سنشير لأسماء أهمها في ثنايا هذا الفصل .

ولم تكن الفترة التي عاشها «النظام» هادئة مستقرة لينصرف بكلّيته لإحياء المعارف الإنسانية وتعميمها . . كما لم يكن سلاطينه . . وهم «من الأتراك الذين عرفوا بجنائيتهم على العلم<sup>(١)</sup>» في تلك العهود لانصرافهم للحروب، مما يساعد على مضاعفة نشاط الوزير لتحقيق ما يرمى إليه من نشره، ولكنه على الرغم من كل ذلك فقد بذل قصارى جهده في سبيل تحقيق هدفه، وربما كان لسياسة الحكم الفاطمي التي بنت منافستها على العلم أثر كبير في مواصلة جهود «النظام» لتعزيز الدعوة العلمية التي كانت تعضد المذهب السنّي . . مذهب الدولة في الشرق ضد التشيع الباطني - مذهب الحكومة الفاطمية في مصر، وذلك بإنشائه المدارس النظامية قبال الأزهر الشريف .

والحق أن هذا العهد وبخاصة الفترة التي كان «النظام» وزيراً فيها - من نوادر العهود التي حفلت بأنواع العلوم وزخرت بجهازة العلماء، والتي لم يشهد لها التاريخ الإسلامي نظيراً فيما بعد . . وربما كانت خاتمة، فبعد أن امتدت ساحة

(١) المختار السائق من شعر ابن الصائغ ص ١١ .

الدولة الإسلامية وتباعدت أطرافها أخذت الأمم المختلفة بلغاتها ومعارفها وحضاراتها الموروثة تحترب فيما بينها وتصارع الحضارة العربية الجديدة. . وكان أن خرجت اللغة الأم العريقة ظافرة متصرة وظلّت بأجنحتها تلك الرقعة الواسعة من المحيط الهندي إلى المحيط الأطلنطي. . غير أنها سرعان ما خبت جذوتها وتضاءلت شعلتها بعد قرنين من وفاة «النظام» على أثر فتح المغول لهذه البلاد.

وقد تجلّى نشاط «النظام» فى هذه الناحية العلمية والى تليها - السياسية - أكثر مما سبق من النواحي الاجتماعية الأخرى. . بحيث كشفت لنا عن قوة شخصيته وصدق نواياه وسلامة أهدافه فى العلم والسياسة. . فلم يكذب يتسلم منصب الوزارة حتى شرع فى تأسيس «نظامياته» وبثها فى حواضر العالم الإسلامى. . وهياً لرواد العلم ما يحتاجون إليه من زاد ومواد. . وقرب إليه العلماء وشجعهم على مواصلة البحث والتدريس وأغدق عليهم الأرزاق لاعتقاده بأن العلم قوام الدين كما أن الدين عماد الدولة وأن العدل أساس الملك. . ومادام يريد لأمته دولة عادلة فلا بد له من نشر العلم كما عممّ الدين. . ولا بد له من أن يمهد لذلك بإنشاء المدارس وغيرها كما مهّد لهذا بإعداد الجيش.

وعند تصنيف - العلماء - لتلك العلوم قسّموها إلى مجموعتين: عقلية ونقلية. وكانت الفلسفة - كما يبدو لنا - هى جماع الصنفين وثمره القمين، لأن مادتها العلوم جميعاً وغايتها الاهتداء إلى كشف قواعد عامة واستنتاج أحكام شاملة فى الحياة والكائنات وما وراء الطبيعة.

### من العلوم العقلية:

#### ١- الفلسفة:

وافتنّ العلماء فى هذه الحقبة من التاريخ بالفلسفة ولاسيما فلسفة اليونان وشغف آخرون بعلوم الدين وتحمّوا له وبخاصة عقيدة الأشعرى

على 'مذهب الشافعي واختلطت لديهم مشكلات الفلسفة بمعضلات الدين.. أو أنهم شاءوا ذلك فصار بنظرهم من يقول بخلق القرآن وأن الإنسان قادر على أفعاله يعتقد اعتقاد الفلاسفة وبذلك يتهم أصحاب «عبد الصمد» من الخنابلة أهل النقل «أبا علي بن الوليد» من المعتزلة أهل الرأي والعقل فيهجمون عليه وعلى داره وتقوم الفتنة عام ٤٥٦هـ<sup>(١)</sup>. . . . .

وقام فريق من هؤلاء يرفع شأن الفلسفة على حساب الشريعة وأخذ فريق من أولئك يدعو لدراسة الفلسفة - أي الحكمة والمنطق واستعمالهما أداة ضد خصومهم كالغزالي، ولعلّ هذا مما دعاه إلى تأليف كتابه - التهافت - ودعا فريق آخر للتوفيق بين الشريعة والفلسفة لاعتقادهم بأن الغرض منهما واحد<sup>(٢)</sup> وهو خدمة الدين .

وبذلك كان الدين هو الحافز الأول وله الفضل الأكبر في نشاط هذه الحركة خلال القرون الأربعة السابقة حتى نهاية القرن الخامس الهجري، وبذلك ليس من صائب الرأي من يعلّل لتلك الحركة بالسياسة وحدها كما ليس من صحيح القول الزعم بأن الفلسفة في هذا العصر إنما هي استمرار وتكرار لفلسفة العصور السابقة، وأن الغزالي في تأليفه ولا سيما في تهافته . . . إنما كان يعمل لتقويض الفلسفة ولغرض الدفاع عن الدين فقط . وبذلك فقد أتت الفلسفة ثمارها في هذا العصر بعد أن نُقلت عن اليونان وتعلمت على أساتذتها، فغدت فلسفة إسلامية مستقلة الفكر واضحة المعالم بيّنة التعاريف والحدود، عميقة الحجّة مدعّمة الآراء بالبرهان .

ابن سينا :

وآية ذلك . . ابن سينا أبو علي الحسن بن عبد الله المتوفى سنة ٤٢٨هـ / ١٠٣٧م . . . طليعة الفلاسفة الصوفية في مطلع القرن الخامس الهجري

(١) سبط بن الجوزي - مرآة الزمان - حوادث سنة ٤٥٦هـ ورقة ٥٨ .

(٢) ابن حزم - الفصل ج ١ ص ٩٤ .

الذى بزّ أقرانه كأبى إسحاق الكندى والفارابى والرازى.. فى التفكير العظيم والتعبير الفلفى الرصين وإن كتابيه - القانون - فى الطب - والشفاء<sup>(١)</sup> - فى العلوم الفلفية لتدلنا على ثراء ابن سينا العلمى وحصافة رأيه.. ولاسيما بما قدّمه لنا من بحوث عن الحواس الباطنية وعن النفس.. وقصيدته فى النفس لا تحتاج شهرتها وذيوخها إلى ذكر فإنها على تضمّنها لمعان فلفية قد بلغت الذروة فى أسلوبها الجميل وتصويرها الرائع.. ويعدّ - ول ديورانت - كتابى الشفاء والقانون - أرقى ما وصل إليه التفكير الفلفى فى العصور الوسطى ومن أعظم البحوث فى تاريخ العقل الإنسانى<sup>(٢)</sup>.

وإنه كان فيلسوفًا لا يميل إلى التقليد لأن العقل عماده ولذلك لم يتأثر بأقوال أبيه عن الإسماعيلية وبقي يشغل بمسائل الفقه والكلام والفلسفة، وكان كلّمًا استعصت عليه مسألة ذهب إلى الجامع وصلى وابتهل إلى الله ليفتح له المغلق ويسهل العير.. وكان كلما شعر بالضعف - كما حدّث عن نفسه - أو النوم فى القراءة والكتابة تناول قدهًا من الشراب ليصحو وتعود إليه قوته.

ولعل ابن سينا أول من حاول أن يوفق ليس بين الفلفسة اليونانية والعقيدة الإسلامية فحسب وإنما بينهما معًا والصوفية جميعًا<sup>(٣)</sup>.

ولإقبال علماء العصر على الفلفسة وشغفهم بدراسة علومها وبلوغهم مرحلتها فقد شاعت فكرة التوفيق بينها وبين الشريعة حتى لا يبقى مجال لتكفير الآخذين بها بحيث بلغت بلاد المغرب فنرى - ابن حزم القرطبى (٣٨٤-٤٥٦هـ) حينما يصل بحديثه عن الفلفسة يقول: «وأما معناها وثمرتها

(١) نشر جزء من النص العربى لهذا الكتاب كما طبع ملخصه باسم «النجا مع القانون فى روما» سنة ١٥٩٣م (مجلة المجمع العلمى فى بغداد).

(٢) قصة الحضارة ج ١٢ ص ٢١١. الترجمة.

(٣) المنجد - المتقى ص ١٦٨.

والغرض المقصود بتعلمها - على الحقيقة - ليس شيئاً غير إصلاح النفس بأن تتكامل فى دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها فى المعاد وحسن السياسة للمنزل والرعية، وهذا نفسه لا غير هو الغرض فى الشريعة. هذا ما لا خلاف فيه بين أحد من العلماء بالفلسفة ولا بين أحد من العلماء بالشريعة<sup>(١)</sup> إلاّ بنظر من جهل بأحدهما أو بهما معاً<sup>(٢)</sup>.

ثم جاء ابن رشد المتوفى سنة ٥٩٥هـ بعد ذلك وقام بمحاولة أخرى للتوفيق بينهما ولا نظن نصراً رافق فيلسوفاً كالنصر الذى رافقه فى انتصاره للفلسفة، وإن كتابه - تهافت التهافت - فى الرد على تهافت الفلاسفة للإمام الغزالي، وكتابه - فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال - خير دليل على فوز العقل الحرّ والتفكير الفلسفى ممثلين فى شخصية هذا الفيلسوف العربى. إذ عن فيلسوف العرب - الكندى - أخذ ابن سينا والفارابى وغيرهما معنى الفلسفة<sup>(٣)</sup>.

وقد كانت مؤلفات ابن سينا الفلسفية مطمح أنظار المتطالعين للدراسات العليا فلم تكف تخرج للوجود ويتسامع بها الناس حتى قرأها كثيرون وتأثروا بها، ومن هؤلاء - أبو العلاء المعرى<sup>(٤)</sup> - شاعر عصر «النظام» وزميله «الخيّام والصباح»<sup>(٥)</sup> حيث اتفق الشاعران معه فى القول بالجزيرية.

### الغزالي:

أفاد - الغزالي - من كتب ابن سينا وهو يطريه ويثنى على فلسفته كما يشيد بالفارابى<sup>(٦)</sup> عند التحدث عنه، وكان كزميله هذا وكأستاذه - الجوينى - صجتهداً

(١) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج ١ ص ٩٤ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الأهوائى: أحمد فؤاد - معانى الفلسفة ص ٤٢ .

(٤) طه حسين - ذكرى أبى العلاء .

(٥) البيهقى - تممة صوان الحكمة ص ١١٠ .

(٦) الغزالي - تهافت الفلاسفة ص ٩ .

لا يميل إلى التقليد، وأن خروجه إلى التصوّف بعد أن بذل جهداً لمعرفة ما كتبه أصحاب الملل والنحل والمذاهب ويثس من إدراك المعرفة الصحيحة<sup>(١)</sup> من أدلة تحكيمة للعقل .

مهما قيل عن الغزالي وشطحاته الصوفية التي ضيّقت النطاق على عقله وحصرت عقول الآخرين فلا يستطيع باحث إلا أن يعدّه من أكابر فلاسفة هذا العصر، إذ إن نقده لبعض نظريات الفللفة ونعيه على المتفلسفين إنما هو من الفللفة وإن كتبه بأسلوبها وموضوعاتها، ومناهج العرب فيها إنما كانت من صميم فلسفة ذلك الوقت .

لقد عالج الغزالي في مؤلفاته بعض المسائل التي مازالت موضع قبول وردّ حتى عصرنا الحاضر وكل ما كان يعترض عليه من مشكلات فلسفية إنما ينحصر في نظريات قدامى الفلاسفة . . في قدم العالم واعتقاد الدارسين فيها دون تمحيص ولا بحث، ولذلك ينحى باللائمة على الذين يحكمون بالظن والتخمين من غير تحقيق ولا يقين<sup>(٢)</sup>، ولذلك هو يطرى الفارابي وابن سينا ويعدّهم من طبقة الفلاسفة المحققين<sup>(٣)</sup> .

والذى يؤخذ على الغزالي في كتبه التي تربو على الخمسين مؤلفاً، وبخاصة ما كان منها في الرد على الفلاسفة أنه كان قاسياً في نقده مقدعاً في سبّه، ساخرًا بذوى الرأى هازئًا بأرائهم . وهذه ليست من خلال الناقد المتجرد . . ولا هى من تقاليد النقد التزيه وهو العالم الفيلسوف المتصوّف . .

ونحن إذ نستمع إليه يقول في معرض حديثه عن الأنبياء: «إنه لم يذهب

(١) المنجد - المتقى ج ١ ص ١٥ (بروكلمان) .

(٢) الغزالي - تهافت الفلاسفة ص ٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٩ .

إلى إنكارهم إلا شردمة يسيرة من ذوى العقول المنكوسة والآراء المعكوسة الذين لا يؤبه لهم ولا يعبا بهم فيما بين النظر، ولا يعدون إلا فى زمرة الشياطين الأشرار. . وعمار الأغبياء والأعمار. . ليكفّ من غلوائه من يظن أن التجمل بالكفر يدل على حسن رأيه. . ويشعر بفظته وذكائه. . إلخ<sup>(١)</sup>» فإنما يخيل إلينا أن الناقد غير الغزالي. . وأن صاحب هذا القلم متحامل غضوب لا يرمى للعقل حرمة ولا يلحظ لآداب الجدل والمناقشة قاعدة.

ومع هذا فإنه كما يقول «بور Boer» أعمق من تضلّع فى دراسة الفلسفة الإسلامية من المشرقين: «إن فى اتخاذ الغزالي تلك الطريقة المبتكرة من التصوف والافتناع الداخلى أعمق - وأيم الحق - من فلسفة المقلّدين». ونحن نقول: إنه فلف التصوف حين سلك طريق التألّه وترك التدريس واتخذ بجوار بيته مدرسة وخانقاه إلى أن مات سنة ٥٠٥هـ<sup>(٢)</sup>، وإنه قد حالفه التوفيق - كما نظن فى فلفته بقدر ما خالفه فى عزلته وانطوائه، على أنه ما كان ليرضى من الصوفية - وهو الصوفى الحق - شطحاتهم وسفاسفهم<sup>(٣)</sup>، كما لا يرضيه من الفلاسفة اعتمادهم على العقل وحده دون استقراء وتتبع ولجوء إلى القلب بغية الوصول إلى الحق عن طريق الإلهام.

## ٢- الفقه:

والفقه وإن كان مختصاً فى الحقوق بشاريع الدين - فإنما هو من الفلسفة وليس واحداً من العلوم الموصلة إليها لأنه إمّا اجتهاد فى مسألة، أو استنتاج لحكم، أو تحليل لقاعدة. . فهو إذًا فلسفة التشريع، لأن المدارس الفقهية - كما يقول

(١) المصدر السابق ص ٦ ، ٧ .

(٢) ابن عساكر - التبيين ص ٣٩٩ .

(٣) الفقرة ١٠٤ من رسالته «أيها الولد» .

«رترا» المستشرق الألماني: «والتفكير الدينى فى الإسلام يمثل الفلسفة العربية أكثر ما يمثلها جمهور الفلاسفة أتباع أرسطو كالفارابى وابن سينا وابن رشد وغيرهم».

وعهد الإثمار فى الفقه يتجلى بما ظهر فى هذه الفترة من فقهاء ثم ما قام به هؤلاء من مؤلفات وما بلغته هذه من التنظيم والتعليل، وإبداء وجهات النظر فى المشكلات الشرعية فى دقة لا نجد لها نظيراً من قبل. وقد تجلّت هذه واضحة فى كتب الأئمة كالفشيرى والجوينى والغزالى. وبدأت أكثر وضوحاً فى الآثار التى استخلصت من أحكام الشريعة فى نظم الإدارة والحكم، وواجبات الملوك بعد أن كانت داخلة فيها ممزوجة<sup>(١)</sup> بها وجعلت منها مدونة ذات موضوع خاص دعت به بالأحكام السلطانية وآدابها.

وكان خير من يمثل عهد الإثمار فى هذا الباب الماوردى الشافعى المذهب المتوفى سنة ٤٥٠هـ فى كتابه «الأحكام السلطانية» وأبو يعلى محمد بن الحسن ابن الفراء الحنبلى المتوفى سنة ٤٥٨هـ، فقد عالج الموضوع كلّ منهما حسب وجهة نظر المذهب الذى ينتمى إليه معالجة بلغت من الدقة وحسن التبويب بحيث أصبحت مرجعاً قلّ أن نرى له مثيلاً حتى فى العصر الحديث.

وقد أعجب بهذه الظاهرة المستشرق الألمانى - شاخت - حتى وصفها بالنهضة العظيمة التى بلغها علم الفقه فى القرن الخامس للهجرة وقال عنها: «إنه لا بد أن يكون ذلك التنسيق للفقه الذى نشاهد أكمل مظاهره عند المذاهب الثلاثة فى وقت واحد تقريباً: للحنفية على يد القدورى، وللشافعية على يد الغزالى، وللمالكية على يد سعيد بن خليل»<sup>(٢)</sup>.

ومهما يكن من أمر ذلك فقد ظهر فى عهد «الوزير» عدد كبير من الفقهاء

(١) الماوردى - الأحكام السلطانية ص ٢.

(٢) مجلة الشرق - المجلد ٢٣ - سنة ١٩٣٥م - ص ٥٤٧.

البارزين وظهر لهم من المصنفات فى الفقه عدد ضخم فى حجمه، عميقٌ فى مادته، وصارت بعد مرور وقت قصير - لكل واحد من أولئك الأعلام - مدرسة تكتظ بالتلاميذ وتزدحم بالأساتيد. . يكتب فيها ما يملون ويدرس ما يكتبون. . ولم يلبث أن يشيع الكتاب فى مختلف الأوساط المتعلمة وتحفظ الخزانة بنسخ منه للإعارة والنقل والتعليق والحواشى عليه.

وقد يكون للخلاف بين السنة والشيعه أثر فى تقدم التشريع الإسلامى وكثرة المؤلفات فيه. . إذ كانت المنافسة بين أعلام الطائفتين على أشدها ولاسيما فى هذا العصر. وثمة سبب آخر ساعد على تقدم التشريع الإسلامى حتى بلغ مرحلة التفقه والفلسفة هو تضافر جهود العلماء من مختلف المذاهب لدراسة الشريعة وتنظيمها وتعليل أحكامها، إذ المعروف بأن الاعتزال والتشيع والأشعرية مذاهب تختلف فى التشريع مثلما هى فى العقائد والكلام. وكان الاجتهاد فى هذا العصر هو الصفة البارزة فى الفقه والأصول معاً حتى لتجده شرطاً أساسياً فى تعيين المحتسب كما نص عليه (الماوردى) فى أحكامه<sup>(١)</sup>، وقسمه إلى عرفى وشرعى وقال عن الأول: ما روعى فيه أصل ثبت حكمه بالعرف، والثانى: ما روعى فيه أصل ثبت حكمه بالشرع<sup>(٢)</sup>.

### مشاهير الفقهاء:

وسواءً أكان هذا أو ذاك فالاجتهاد فى التشريع الإسلامى أمرٌ لاشك فيه والتجديد من صفات المجتهد التى لا تكون إلا بعد تبحرٍ فى العلوم واستجماعه شرائط الإمامة من العربية والكلام والأصول ومعرفة الكتاب والسنة<sup>(٣)</sup> - كما يقول - أبو إسحاق الإسفراينى المتوفى سنة ٤١٨هـ. وأنه على الرغم من توافر هذه الشروط فى كثير من أعلام المسلمين - على اختلاف العصور - لم يستفد

(١) الماوردى - الأحكام السلطانية ص ٢٠٩.

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٣.

(٣) ابن عساکر- التنبيه، ص ٢٤٤.

منه، وبخاصة عند السنّة مثلما استفيد منه في هذا العصر فالشيخ - أبو إسحاق الشيرازي - يخالف إمامه الأشعري في مسألة «إن الأمر لا صيغة له»<sup>(١)</sup>.

وكان الشيرازي هذا من أبرز فقهاء هذا العصر وقد ظهر له من التآليف عددٌ كبير منها: «التنبيه والمهذب، واللمع».

والقاضي أبو المحاسن الروياني الطبري المقتول سنة ٥٠١هـ، صنّف كتباً كثيرة منها كتاب «التجربة» وكتاب «الشافى» وكتاباً آخر كبيراً سمّاه «البحر». يقول ياقوت: «رأيت جماعة من فقهاء خراسان يفضلونه على كل ما صنّف في مذهب الشافعى، وكان (النظام) يكرّمه»<sup>(٢)</sup>.

وأبو سعد بن مأمون المتوفى سنة ٤٧٨هـ أَلَف كتاب «التتمة» الذى تمّم به كتاب الإبانة لشيخه - أبى القاسم الفورانى - وكتباً أخرى فى الفقه<sup>(٣)</sup>.

وكان «النظام» لا يسمع بواحد من هؤلاء الفقهاء إلا بنى له مدرسةً أو رباطاً وأجرى عليه رزقاً ليتفرغ للعلم والتعليم والعبادة فلم يكد يترك سمعه حال «أبى المظفر الإسفرائينى» الفقيه الأصولى المتوفى سنة ٤٧١هـ حتى ارتبطه بطوس<sup>(٤)</sup>.

ثم الإمام أبو المعالى الجوينى المتوفى سنة ٤٧٨هـ فقد بنى له «النظام» المدرسة النظامية بنيسابور بعد عودته من دار هجرته إلى الحجاز، وبقي يدرس نحو ثلاثين سنة وكان يحضر حلقة درسه قرابة ثلثمائة رجل من الأئمة والطلبة وتخرج عليه جماعة من الفحول وأولاد الصدور. وصنّف الكتب الكثيرة من أشهرها - النظامى والغياثى - برسم الحضرة النظامية وأنفذهما إلى «النظام» فحللاً من نفسه موضع الرضا والقبول وقابلهما بما يليق من الشكر والخلع والهدايا

(١) نفس المصدر ص ٢٧٦-٢٧٨.

(٢) هو عبد الواحد إسماعيل بن محمد بن أحمد الروياني، من رؤوس الفقهاء فى أيامه بياناً واثقاً. قتل شهيداً فى مسجد الجامع بأمل طبرستان. ياقوت - معجم البلدان - مادة رويان ج ٢ - ص ٨٧٣.

(٣) هو المتولى عبد الرحمن بن مأمون بن يحيى النيسابورى درس بنظامية بغداد بعد الشيرازى ثم عُزل بآين الصباغ ثم أعيد إليها بعد مدة. توفى كهلاً ببغداد بعد عشية (السير، مجلد ١١ ص ٥٦١).

(٤) هو شاهفير بن طاهر بن محمد (التبيين ص ٢٧٦).

والمرسومات والمراكب الممتعة<sup>(١)</sup>... ولما وجد من «النظام» هذا التشجيع انصرف إلى التصنيف وألف «نهاية المطلب في دراية المذهب» وغيره.

ومن فقهاء الإمامية في هذه الفترة السيد المرتضى<sup>(٢)</sup> والشيخ الطوسي<sup>(٣)</sup> والطبرسي<sup>(٤)</sup>. وبما يؤسف له - في هذه المناسبة - وهو أسفٌ لا ينحصر بمؤلفات هذا القرن فقط: أن يتضخم كتاب «العبادات على حساب المصالح العامة والمعاملات»، وأن يشغل أذهان الفقهاء أنفسهم، ويقضوا أعمارهم، ويشغلوا الناس معهم في أمور لا تتصل بواقع حياتهم ومشكلات مجتمعاتهم كالرسائل التي كتبوها في الطهارة والنجاسة وصنوف العبادات المتحبة من أورايد وأذكار بحيث لا تتفق ومشاكل الحياة، ولا يمكن أن تكون من الفروض الدينية النافعة بأي حال من الأحوال.

### ٣- علم الكلام:

ويطلق عليه - الأصول والتوحيد - أيضاً، ونشأ نتيجة لتطور الفكر وتفشي الجدل الذي اعتمد على المنطق، وانتشار ترجمات الفلسفة اليونانية في الإلهيات.

(١) التبيين ص ٢٧٦-٢٨٦، وانظر تفصيل حوادثه ص ٣٥٤ من البحث.

(٢) علم الهدى أبو القاسم على بن الحسين بن الإمام موسى الكاظم: له التصانيف الكثيرة المشهورة منها: الانتصار في الفقه، والخلاف والذريعة في أصول الفقه، والذخيرة في الأصول، والشافى في الإمامة، وجعل توجيه العلم والعمل، وطيف الخيال وغرر الفوائد ودرر القلائد المشهورة بأمالى المرتضى وغيرها كثير من أهمها: ديوانه الكبير. توفى سنة ٤٣٦هـ (انظر أدب المرتضى ومقدمة ديوانه تحقيق الأديب: رشيد الصفار).

(٣) هو أبو جعفر محمد بن الحسن بن على الطوسي، يلقب بشيخ الطائفة. توفى سنة ٤٦٠هـ، وله كتاب في التفسير «التبيان الجامع لعلوم القرآن» وله في الحديث كتابا «التهديب» و«الاستبصار» وفي الفقه كتاب «النهاية» وكتاب «المبسوط» في واحد وثمانين جزءاً وكتاب «الخلاف»... وله كتب أخرى في الأصول والرجال منها «الفهرست» وهو مطبوع في النجف (القلمى عباس - الكنى والألقاب ص ٣٥٧).

(٤) أبو على الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي... صاحب كتاب «مجمع البيان في التفسير» وله في الفقه كتاب «الوسيط والوجيز والجامع». توفى سنة ٥٤٨هـ. (القلمى عباس - الكنى والألقاب ص ٤٠٤).

والكلام «كالفقه» لا يختلف عن الفللفة إلا بالسمعيات المنقولة عن الرسول.. فهو علم عميق فى عالم واسع لا نهاية لأطرافه، يحلّق الفكر فيه ويحوم حول غامض يحاول أن يجليه ويكشف عنه فتارة يهتدى وأخرى يخفق وهو فى الحاليتين لا يدرى أضلّ أم أصاب كبد الحقيقة.

وقد توهم أحد المستشرقين فاتهم - الكلام - بالسياسة وأنه - وهو علم التوحيد يرسم الصورة التى تستهدفها الدولة فى العهود المختلفة.. ثم قال: «وإنه جزء منها وليست السياسة جزءاً منه» وقد قال ذلك - توماس هيووز - فلقى معارضة شديدة فى القرن السابع عشر<sup>(١)</sup>.

ولانظن القول حقاً مادام الدين كان رائد الطليعة الأولى من الخلفاء ومادام الدين هو الهدف الأعلى من السياسة والحكم. ولئن كانت الفواصل بين السياسة والدين غير واضحة الحدود ولا بيّنة المعالم فى الحكومة الإسلامية فلا يتطّيع مؤرّخ أن يرسل حكماً عاماً باستغلال الدين فى سبيل النفوذ السياسى، وتوجيه العلم والفكر الوجهة التى يريدّها، فإن من المعقول ألا نخضع الفكر لحاكم مستبدّ، ولئن اضطرّ لذلك فترة من زمن فلا بد أن ينطلق فيكسر القيود ويخرج على الحكام وعلى القواعد المألوفة التى اصطنعها هو نفسه أحياناً.

وهذا ما لحظناه على الفكر الإسلامى، فقد تطور بعد وقت قصير وحلّق فى أجواء ما بعد الطبيعة وسجّل ما تمثّل له وتصوره، ثم اختلفوا فيما تمثّلوه وجادلوا فيما تصوره وصار لكل صاحب رأى مدعّم بالحجّة مستند على دليل له أنصار وله مدرسة وتلاميذ ودعاة فى مختلف الأمصار.

وهناك شىء آخر يدلّنا على أن بحوثهم فى «الكلام» لا تتعدى الدين، ولم يكن الغرض منها سوى التحقيق فى أصول أحكامه.. فقد روت المصادر أن الشافعى كان يتحاشى النظر فى «الكلام» لثلا يشغله عن الفقه، وقد حدّر وهو إمام المذهب الشافعى من الاشتغال به وله فى ذلك تعليل طريف ومحاجة رقيقة

(١) عنان - المذاهب الاجتماعية الحديثة.

مع سائل له فى التوحيد يوم كان فى مصر . . قال بعد حديث طويل : «أندرى كم نجم فى السماء؟» قال السائل : فقلت لا . فقال : فكوكب من هذه الكواكب الذى تراه تعرف جنيته . . طلوعه وأفوله مما خلق؟ فقلت : لا . قال فشىء تراه بعينك خلق ضعيفاً من خلق الله لست تعرفه ثم تتكلم فى علم خالقه . . ولا تتكلف علم ما لا يبلغه عقلك<sup>(١)</sup> تناظروا فى شىء إن أخطأتم فيه يقال لكم أخطأتم ولا تناظروا فى شىء إن أخطأتم فيه يقال لكم كفرتم<sup>(٢)</sup> .

وقد حاول ابن عساكر توجيه حذر الشافعى من علم الكلام، وأنه لا غاية له إلا كلام أهل البدع الذى يخالف الكتاب والسنة<sup>(٣)</sup> . وهى محاولة لا تخلو من تعسف ظاهر لأن هذا المصطلح إذا أطلق ينصرف الذهن إلى علم الكلام بمعناه الواسع أولاً . . ولأن تعاليل الإمام تدل على قصده هذا أيضاً، بل إنما «خرج جماعة بالفلسفة ظناً منهم أن علم الكلام فلسفة»<sup>(٤)</sup> .

وسواء أراد الشافعى هذا أو ذاك فإن الحكاية تدلنا على أن الدين هو الدافع لدراسة - الكلام - وهو العامل فى الخشية منه، وأن التمثيل بالنجوم للاستدلال على عظمة خالقها وغموض ما وراءها ليرشدنا - ولو من طرف خفى - إلى تنبيه القوم إلى أهميتها واهتمامهم فى دراستها . . وأنها الأجدر بالبحث لأنها أجدى نفعاً وأكثر فائدة وأقرب إلى الحقيقة والواقع .

وقد اشتهر فيه من أعلام هذا العصر . . النفسى المتوفى سنة ٥٣٧هـ وألف كتابه «العقائد النسفية» فى التوحيد<sup>(٥)</sup> الذى عنى به الفضلاء فشرحه المحقق التفتازانى . . ثم العقيدة النظامية لإمام الحرمين الجوينى .

(١) ابن عساكر - تبين كذب المفترى ص ٣٤٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٤٤ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٥١ .

(٤) السبكى - الطبقات ج ١ ص ١٩٨ .

(٥) هو نجم الدين أبو حفص عمر بن محمد بن إسماعيل السمرقندى الحنبلى . . أصولى متكلم ألف كتاباً كثيرة منها «كلية الكلية فى الاصطلاحات الفقهية» وزار الزمخشرى وحدثت بينهما مساجلة نحوية طريفة حول اسم عمر المرجح القمى عباس - الكنى والألقاب ج ٣ ص ٢٠٧ .

#### ٤ - التنجيم والفلك والرياضيات:

وكان للاعتقاد بالقضاء والقدر أثره في تقدم - التنجيم والفلك - كما كان لهما أثر أكبر في رسوخ هذا الاعتقاد في أذهان الخاصة والعامّة على السواء، وأقبل العلماء يتدارسون مواقع النجوم وطبائعها وأبعادها وحجومها، وحالات شروقها وغروبها ومدى صلتها بالأرض والناس الذين يعيشون على ظهرها. والقضاء والقدر - كما تبين من أمهات المسائل الدينية - فكرة غيبية لجأ إليها الإنسان عندما حار في تعليل بعض الأحداث التي تقع له في الحياة وعجز عن دفعها عنه، وهكذا كان موقفه عند كل مجهول لا يجد له تفسيراً ولا يستطيع له تحويلاً. . . كالأمرض والغنى والفقير، والشهرة والخمر، فإنه أرجعها إلى فعل الكواكب وتأثيرها في توجيه معاشه منذ ولادته.

وليس بمستبعد أن تفسير مظاهر الحياة بتحركات الأفلاك وطبائع النجوم من بقايا عبادة الإنسان لها حينما بهرته بتناسقها وبقائها وقوة ضوئها. لذلك يمكننا القول بأنه أسبق من تفسيرها بالقضاء والقدر، وأنه قد مال إليه حينما تزلزلت عقيدته في قدرة النجوم ورأى أنها لا تملك لنفسها قوة في شروق وأفول<sup>(١)</sup>.

والفلك بفروعه كالقضاء والقدر: آراء في المغيبات وأحكام تقديرية في البعيد المجهول فكأنها من مواضيع ما وراء الطبيعة، لذلك اعتبرت واحداً من فروع الفلسفة الرياضية. . . وكان الفلك بفروعه من ثقافات هذا العصر التي ذاعت في مختلف الأوساط، وقد بلغ شأواً بعيداً بحيث تميزت أنواعه بعد أن كانت متداخلة وكان يشتملها الفلك تارة والهيئة أخرى وعلم النجوم ثالثة، وعاف العلماء ما كان شعوذة ودجلاً كالتنجيم مثلاً وسخروا بأصحابه.

وكانت عنايتهم به لأغراض منها ما يتعلق بالدين كمواقيت الغروب

---

(١) الآيات ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لم يهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾

﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلذِّى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿ لانعام آية ٧٧، ٧٩ (هذه

الآيات وردت في القرآن على لسان سيدنا - إبراهيم الخليل - أبو الانبياء).

والشروق والزوال لتعيين مواعيد الصلوات والأهلة بالنسبة لرمضان وموسم الحج والأعياد والخسوف والكسوف... ومنها ما يتصل بالحياة المعاشة لمعرفة الفصول لتحديد مواسم الأمطار والرياح والبرد والحر وأثر ذلك على المحاصيل الزراعية وعلى التجارة، وثالث هذه الأسباب اعتقادهم بتأثير الأجرام السماوية على أمزجة الناس ومصحتهم وسعادتهم ونحيمهم.

وقد قسّموه تبعاً لأغراضه تلك إلى أقسام ثلاثة: فما يبحث فيه عن عدد النجوم وأشكالها ومقاديرها وأبعادها سمّوه بعلم الفلك، وما يبحث فيه عن حركات النجوم ووصف ما يعرض لها من أحوال وهى تجرى فى مداراتها دعوه بعلم الهيئة<sup>(١)</sup>. ثم ما يبحث فيه عن علاقة النجوم وطوالع البروج على الكائنات وأثرها فى حياة الناس أطلقوا عليه - علم الأحكام<sup>(٢)</sup> وهو التنجيم.

والذى يظهر لنا من ذلك أن التنجيم ليس فرعاً ثالثاً كما توهم المصنفون لأقسام العلوم وإنما هو النتيجة العلمية لتلك المعرفة النظرية للأجرام السماوية فى مسالكها. . وأن هذه الأقسام الثلاثة إنما هى لعلم واحد وتلك موضوعاته. . من ناحيتها التجريدية والتطبيقية. . وما يدعّم هذا ما ذكره - نظامى عروضى - عن أبى الريحان البيرونى المتوفى سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م من أن الهيئة والأحكام من الشرائط الأربعة التى ينبغى أن تتوافر فى المنجم بعد الهندسة والحساب<sup>(٣)</sup>.

ويضعه «ابن سينا» من أكبر مصنفى العلوم فى أوائل القرن الخامس الهجرى ضمن العلوم العقلية ويجعل من فروعه - الزيجات والتقويم<sup>(٤)</sup>. . وما يلفت النظر ويدلنا على تقدم الفلك والرياضة فى هذا العصر عمل «الزيج الجلالى» فإن التقويم السنوى الذى وضع فى عهد السلطان - ملكشاه - وبناء على توصيات وزيره «النظام» وتحت إشرافه كان أفضل من الفريغورى، وذلك لأن

(١) نلينو - تاريخ علم الفلك عند العرب فى القرون الوسطى ص ١٨.

(٢) سرّ الأسرار والسياسة فى مد الرياسة المنسوب إلى أرسطو ص ٨٦، وكذلك الرسالة الثامنة من رسائلهم مبادئ علم النجوم ج ١/٥٦.

(٣) جهاز مقاله ص ٦٢ (الترجمة).

(٤) تسع رسائل فى الحكمة والطبيعات ص ١١١-١١٢ ج ١.

هذا يؤدي إلى خطأ ثلاثة أيام من كل عشرة آلاف سنة مع أن التقويم العربي لا يؤدي إلا إلى خطأ يومين في مثل ذلك الدور<sup>(١)</sup>.

كل هذا يدلنا على شئ ذي أهمية كبيرة في تاريخ الحضارة العالمية فضلاً عن الإسلامية ذلك أن العلوم الرياضية، والتطلع إلى دراسة الأجواء ومعرفة أسرارها بلغ من الرقى بحيث قد شيد فضلاً عن التقويم مرصد للكواكب بناء على طلب السلطان - ملكشاه - ووزيره النظام سنة ٤٦٧هـ وكان ممن اشتركوا في إعداده الخيام، وأبو المظفر الاسفزارى، وميمون النجيب الواسطى<sup>(٢)</sup> وغيرهم من مشاهير الرياضيين في هذا العصر.

ومهما يكن نظر العلماء نحو النجوم فإن الاعتقاد السائد بأثرها على حياة الناس من حيث السعادة والشقاء، والفقر والغنى والصحة والمرض كان يسود العامة وبعض الخاصة لذلك لا نجد طبيياً إلا وكان له إلمام بعلم النجوم حتى صار بمنزلة - علم النفس - بالنسبة لطب الأبدان في العصر الحديث. لذلك كان للسلطان ملكشاه منجمه الخاص وهو - بهرام - وجماعة من أصحاب الرصد الذين يشيرون عليه بمحاسن الأيام في الخروج إلى الصيد أو الحرب أو القيام بالاحتفال وتعيين موقع المحراب عند بنائه جامعاً وأمثالها<sup>(٣)</sup>. وكذلك كان لوزير «النظام» منجمه الخاص وهو - الحكيم الموصلى - الذى لم يفارقه إلا عند شيخوخته ولم يكن سوى فراق فى السكن. أما الاستشارات والإرشادات إلى أسعد الأيام وأشقاها فإنها لم تنقطع إذ رجاء أن يعث إليه من نيسابور كل عام تقويمًا وتحويلاً<sup>(٤)</sup>.

واشتهر فى الفلك والرياضيات فى هذا العصر عدد من العلماء كان فى

(١) جوستاف لوبون - حضارة العرب (ترجمة زعيتير).

(٢) ابن الجوزى - المنتظم، حوادث ٤٦٣هـ وابن الأثير - الكامل، حوادث العام نفسه.

(٣) ابن الأثير - الكامل، حوادث ٤٨٤هـ ج ١٠ ص ٨٢، والمنتظم لابن الجوزى - واسمه درهم - حوادث ٤٨٥هـ.

(٤) نظام عروضى - جهار مقالة ص ٦٨، ٦٩ (ترجمة د/ يحيى الخشاب وعبد الوهاب عزّام).

مقدمتهم «البيروني»<sup>(١)</sup> الذى لم يعرف أحذق منه فى علم الفلك وقد شهد له العلماء فى أنواع الرياضيات والذى كان موضع تجلّة واحترام من قبل ملوك العصر يومذاك، وكذلك - الحّيّام - زميل «النظام» فى مدرسته وبعد استيزاره .

#### ٥- الطب:

وكانت نظرة الناس - آنذاك - إلى الأطباء ملؤها الإجلال والإكبار إذ الطبيب - حينذاك - ينبغى أن يكون ملماً بأصناف العلوم، آخذاً بأطرافها، عارفاً بالفنون الرياضية . . وكان الخاصة - ولا سيما الحكام - يختصّ الواحد منهم بطبيب . . كما انفرد بمنجّم إذا لم يكن جامعاً بين الطب والتنجيم فى مستوى واحد .

ولئن كان الطب لم يبلغ المرحلة التى وصل إليها اليوم، إلا أنه - من غير شك - قد تفوّق على العصور التى سبقته بما عرف عن مشاهير الحكماء فى هذا العصر . وربما كانوا قد سبقوا أطباء العصر الحديث بمراحل فى شعورهم بخطورة المهمة الملقاة على عواتقهم . . وخشيتهم عقاب الآخرة إذا تظلم المرضى إلى خالقهم، فابن بطلان البغدادي<sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٤٤٤هـ يكتب إلى زميله - ابن رضوان - الفيلسوف المصرى رسالة يختمها بقوله: «وليتحقق أن اللذة بمضغ الكلام لا تفى بغصّة الجواب، فإن لنا موقف حساب، ومجمع ثواب وعقاب، ينتظلم المرضى إلى خالقهم، ويطالبون الأطباء بالأغلاط القاضية فى هلاكهم» . وقد خلّف «ابن بطلان» هذا كتاباً سمّاه «دعوة الأطباء» قدّمه للأمير نصر الدولة أبى نصر أحمد بن مروان .

وكان منهم «أبو الحسن سعيد بن هبة الله» المتوفى سنة ٤٩٤هـ طبيب

---

(١) هو محمد بن أحمد أبو الريحانى البيرونى - مات السلطان محمود سنة ٤٢٢هـ وهو حى بغزنة، وكان فوق تبحره فى العلوم أدبياً لغوياً له فى ذلك تصانيف عدّة . . وقد رأى - ياقوت - فهرس كتبه فى شتى العلوم فى وقف الجامع بمرّو فى نحو الستين ورقة بخط مكتنز - ياقوت - المعجم ج ١٧ ص ١٨٠ : ١٩٠ .

(٢) هو المختار بن الحسن بن عبدون، سافر إلى حلب ومصر واجتمع بابن رضوان وجرت بينهما مناظرات أدت إلى منافرة . . وعاد إلى أنطاكية مترهباً فى أحد أديرتها إلى أن توفى .

الخليفة «المقتدى بأمر الله العباسي» وله كتاب «الأسباب والعلامات» وكتاب «الإفناع» في الطب<sup>(١)</sup>، وقد تخرّج عليه «يحيى بن عيسى بن جزلة»<sup>(٢)</sup> الطبيب البغدادي المتوفى سنة ٤٩٣هـ، صنّف كتاب «تقويم الأبدان في تدبير الإنسان» للخليفة المقتدى وكتاب «مناهج البيان فيما يستعمله الإنسان». وكتاب المنهاج جمع فيه أسماء الحشائش والعقاقير والأدوية.

ومن مجاهيل الأطباء الذين يجب أن نشير إليهم - ابن أبي صادق النيسابوري - المتوفى سنة ٤٧٠هـ<sup>(٣)</sup>، وله كتاب الطب المعروف باسمه وقد فرغ من تأليفه سنة ٤٥٩هـ.

ومن مشاهير الطليعة في ذلك العصر الشيخ الرئيس «ابن سينا» المتوفى سنة ٤٢٨هـ/١٠٢٧م وله في هذا العلم كتاب «القانون» الذي ظل مرجعاً يعتمد عليه الدارسون في جامعات الغرب إلى أواخر عصر النهضة الأوروبية، كما تحدثنا عنه آنفاً.

### من العلوم النقلية:

وهي صنفان: روائية وتعتمد أكثر ما تعتمد على الرواة كالحديث والتاريخ، ولسانية.. تهدف إلى تقويم اللسان بالنطق الصحيح والارتفاع به إلى مستوى بلاغى.

وقد خلّف العرب مجموعة من العلوم اللسانية لا تقل عن نظيرتها العقلية

---

(١) وهو أبو الحسن يحيى، كان نصرانياً ثم أسلم وصنّف رسالة في الرد على النصارى.. وذكر فيها عوار مذهبهم ومصائب اليهود، وقد قرأ على ابن الوليد شيخ المعتزلة «الكلام والألفاظ المنطقية والمنطق». ولما مرض أوقف كتبه على مشهد الإمام أبي حنيفة.

(١) الكنى والألقاب ج ١ ص ٢٣٣.

(٢) ذكره ابن أبي أصيبعة في «عيون الأنباء» وقطب الدين اللاهيجى في كتابه «محبوب القلوب» المخطوط- قال عنه صاحب «مطرح الأنظار» بالفارسية أن الوزير الكندرى قد استدعاه لمرض القولنج الذى أصابه وأرسل إليه فرسه الخاصة مع غلامه فامتنع عن الذهاب إليه وقال القنوع لا يرخص لخدمته السلطان، ومن أكره على الخدمة لا ينتفع بخدمته كالبازى الذى يكره على الصيد.. (وتوجد نسخة من كتابه فى مكتبة الطبيب «محمد الخليلى» فى النجف بخط يرجع إلى سنة ٤٩٩هـ).

والروائية فى بعض صورها - جده وأصالة وربما فاقتها دقة وتفصيلاً . فقد عنوا بها قدر عنايتهم بالقرآن والحديث . . . وكان القرآن - كما يعتقد بعضهم - هو الحافز الأول فى ابتكار هذه المجموعة وتفريغها والدافع الوحيد للاهتمام باستتاج قواعدنا وتخريج أحكامها، واستنباط فصولها وأبوابها، فالنحو والصرف مثلاً، دراسة لاشتقاق الكلمة ومعرفة أواخرها فى الجملة إعراباً وبناءً. والبلاغة بحث فى أسلوب القرآن وطرق فهمه ومراميه فى القول<sup>(١)</sup> حتى عرفها أبو هلال العمكرى: «بأنها الوسيلة لمعرفة إعجاز القرآن»<sup>(٢)</sup> . . . وحتى عدّها الجرجانى أحسن العلوم وأشرفها وألّف كتابه «دلائل الإعجاز» ليستدلّ على ذلك<sup>(٣)</sup>.

غير أننا - وإن كنا لانغفل أثر القرآن فى نشأة هذه المجموعة فإننا ينبغى ألاّ نهمل تأثير العقل النامى فى تطويرها وتنويعها. . وأن اختلاط العرب بالأمم وامتزاج ثقافاتهم من أولى العوامل فى نموها وازدهارها، كما أن حياة الأمن والاستقرار من ناحية وروح المنافسة بين الخلافتين العباسية والفاطمية والمذهبيين السنّى والشيعى من العوامل التى ساعدت على تقدمها.

نحن نعلم كيف بدأت الخصومات فى قواعد اللغة وأساليبها إلى أن انتهت إلى فلسفتها وصارت لها مدارس فى الكوفة والبصرة ثم فى بغداد، وكيف توصل أساتذة تلك المدارس إلى اكتشافات فى أسرار اللغة واهتدوا إلى اختراعات فنون جديدة أضيفت إلى مجموعة اللغة فوصلت إلينا هذه المكتبة الضخمة الزاخرة بذخائر الأفكار. . الحافلة بجليل الآراء.

وكان سيراً طبيعياً أن تبدأ سنة التطور الفكرى عند العرب بتلك المشادة اللغوية بعد أن اختلطوا بالأعاجم، والتقت الثقافات اليونانية والفارسية

(١) الخولى - دائرة المعارف الإسلامية. . مادة بلاغة. وابن خلدون - المقدمة ص ٣٥٥، وابن الأثير - المثل السائر ج ٣.

(٢) الصناعتين ج ٢ (الطبعة الأولى).

(٣) الدلائل ج ٤ (الطبعة الخامسة).

والهندية والرومانية بالعربية... وكان تطوراً سريعاً سابق عجلة الزمن بما انتهى إليه من ابتكارات واستنتاجات بمثابة البذرات النامية التي أثمرت بعد قليل من الزمن فبقى منه بين أيدينا ما نتدارسه ونرجع إليه بأسماء علوم النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والعروض وغيرها.

وقد تجتمع هذه كلها في كتاب يحوى عدة أجزاء ومئات الصفحات تحت عنوان واحد هو التفسير مثلاً أو شرح ديوان أو إحدى المعلقات فكان الكتاب العربي أحياناً يبلغ العديد من المجلدات مثنياً على مختلف الموضوعات. وبذلك صار الفقيه أو المتكلم أو المنجم موسوعة تضم بين جوانحها هذه المعارف وما يمهدها ويتصل بها كما كان الكتاب موسوعة تضم بين دفتيها تلك العلوم وما يتعلق بها.

لم تجد فكرة الاختصاص - بالمعنى الذي نعرفه اليوم - أنصاراً لها في مدرسة العلماء أو الأدباء فكثيراً ما يكون الفقيه والحكيم قد ألمّ بأطراف الفنون الأدبية حتى لينظم الشعر وينقد الشعراء كالبيروني والمعري وأمثالهما... وكثيراً ما يكون الأديب قد أحاط بفروع العلوم حتى ليؤلف فيها كواحد من رجالها كالجاحظ.. مثلاً، إذ كان لابد لمن يدرس علم الشريعة ويدرك أصوله أو الذي يود أن يتضلّع في لغة القرآن ويتفهم مقاصدها ومعانيها أو يكون من الأدباء الهواة أو المحترفين أن يتقن ما لا يقل عن اثني عشر فرعاً من علوم العربية حتى ظهر بينهم من درس في سبعة عشر نوعاً من العلوم كأبي منصور عبد القاهر البغدادي المتوفى سنة ٤٢٩هـ<sup>(١)</sup>. ولذلك كان من العسير على الكاتب أن يأتي بمثل في العلم أو الأدب، وقد تفرّد في واحد منهما فضلاً عن التخصص في واحد من فروعهما.

#### ١- القرآن والحديث:

ففي التفسير مثلاً نجد شواهد عديدة على هذا التوسع في المعلومات والتضخم

(١) ابن عساکر - الثيبين ص ٢٥٤.

فى الكتاب، ومما روت الأخبار بهذا الخصوص أن «النفى الماترىدى» (٤٦٠-٥٣٧هـ) ألفت كتابه «التىىر فى التفسىر» - وقد جمع فىه الصر فى والنحو واللغة والقراءات والكلام والفقه وأسباب النزول<sup>(١)</sup>.

وقىل كذلك أن «المجاشعى التمىى» المتوفى سنة ٤٧٩هـ صنف كتاب - الإكسىر فى التفسىر - فى خمسة وثلاثىن سفرأ، ومؤلفأ فى النحو فى عدة مجلدات وآخر فى الدول فى أزد من ثلاثىن، وقد طوف الدنيا واتصل بـ«نظام الملك»<sup>(٢)</sup> ومدحه بشعره.

ومثل هذا حكى عن «التفسىر الكبىر» لأبى يوسف القزوىنى - المتوفى سنة ٤٨٨هـ - قال عنه الذهبى: «إنه لم ىر من التفاسىر كتابأ أكبر منه ولا أجمع للفوائد لولا أنه مزجه بكلام المعتزلة وبث فىه معتقده». . وقال عنه فى موضع آخر نقلاً عن ابن النجار: «إنه فى خمسمائة مجلد. . حشا فىه العجائب حتى رأىت منه مجلدة فى آية واحدة. . هى قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا مَا نَزَّلْنَا السَّيِّطِينَ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ﴾<sup>(٣)</sup>. . فذكر فىه السحرة والملوك الذىن نفق علىهم السحر وأنواع السحر وتأىراته»<sup>(٤)</sup>.

وكان هناك غير هؤلاء من أعلام المفسرىن - الواحدى النىسابورى - المتوفى سنة ٤٦٨هـ وله كتاب «البسىط والوسىط» وأبو عبد الله النهروانى المتوفى سنة ٤٩٣هـ مؤلف كتاب «القانون» وهو عشرة مجلدات فى اللغة والتفسىر، وبه تخرىج أدباء أصبهان وتأذب أولاد «نظام الملك»<sup>(٥)</sup>.

(١) هو أبو حفص عمر بن أحمد من كبار علماء الأحناف وكتابه هذا عدة نسخ. انظر مجلة معهد المخطوطات ج ١ المجلد الرابع ص ١١.

(٢) هو أبو الحسن على بن فضال بن على بن غالب القىروانى الفرزدقى. قىل إن إمام الحرمن وعده بألف دىنار على كتاب «الإكسىر» فلماً فرغ من قراءته علىه لم يعطه شىئأ فوعده بأن ىهوجه، فبعث إله ىدتمىحه العذر (السىر ج ١١ ص ٥٢٥).

(٣) سورة البقرة - من الآىة ١٠٢.

(٤) هو القاضى عبد السلام محمد بن يوسف بن بندار شىخ المعتزلة وداعىته، أقام بمصر سنىن وعاد منها إلى بغداد بأحمال من الكتب قىل ابتاعها بالخبز وقت شدة الغلاء، وقىل بالأثمان الغالية. . (تارىخ الإسلام للذهبى ج ١٢ ورقة ١٧، والسىر ج ١١ ص ٥٧٤).

(٥) ىعرف بابن الفتى وهو سلیمان بن عبد الله أبى طالب بن محمد النهروانى ثم الأصبهانى.

أما الحديث فربما كانت العناية بنصوصه أقوى والاهتمام برواته أشد، وذلك لأن الشك في صحة النص وصدق الرواة أخذ يتضاعف بمرور الأعوام وتزايد الوضّاع، وتكاثر المتحلل. . وهذا مما لم يحدث في القرآن، لذلك كان لابد - لدارس الحديث وهو المصدر الثانى للتشريع الإسلامى بعد القرآن - من التثبت أولاً: من صحة الرواية وصدق السند وسلامة رجاله، وثانياً: التأكد من فهم النص ومعرفة القصد منه ومدى تطبيقه. فكان لابد من فتح مدارس، وتخصّص أساتذة يقضون جلّ أوقاتهم ومعظم أعمارهم فى هذه الدراسة الواسعة.

وكان المعنيون بالحديث يطوفون البلدان من أجل سماع حديث على السند أو استملاء آخر على يد أستاذ اشتهر بالدقة والتحقيق. ومن أجل ذلك كانوا يفضلون لقاء الرجال على الدراسة فى الكتب، ولاسيما الحديث لاحتمال تحريف النسخ فيها.

ولمزيد عناية الناس وبخاصة الحكام بالحديث ورعايتهم للمحدثين كانوا يؤسسون لهم الدور والربط ويظهرون الفرحة إذا ولى أحدهم القضاء<sup>(١)</sup>، حتى عجت حواضر العالم الإسلامى بالمحدثين وفى مقدمتها «بغداد» و «نيسابور» و «أصفهان»، وأقبل هؤلاء على دراسة الحديث نصاً ورواة، ودراسة تحليل ونقد. . . وشاعت هذه الدراسة فى أوساط المعلمين بحيث قلّ أن نجد بين أساتذة الشريعة والفقهاء والمؤرخين من لم يكن راوية للحديث أو ألف فيه أو فى رجاله. . وكان من هؤلاء من عرف بالفقر فيجمع بين التعلم والعمل. . كأبى سعد الخركوشى المتوفى سنة ٤٠٧هـ الذى كان يعمل القلانيس<sup>(٢)</sup> ومنهم من لا يجد عملاً فيطالع فى ضوء القمر كأبى منصور الأيوبى تلميذ ابن فورك المتوفى سنة ٤٢١هـ.

وكان سماع الحديث وروايته من الثقافات التى يسوغ للمرأة أن تشارك الرجل

(١) ذكره ابن عساکر فى ترجمة البسطامى حينما ردد العهد بقضاء نيسابور. توفى سنة ٤٠٨هـ (التبيين ص ٢٣٨).

(٢) ابن عساکر - التبيين .

فيها، فإذا سمعت ورويت نالها من التجريح والتعديل ما ينال الرجل في السند والرواية. . . ومن لمعت أسماؤهن في هذا العصر: خديجة بنت موسى بن عبد الله الواعظة التي توفيت سنة ٤٣٧هـ<sup>(١)</sup>. وسبتة بنت القاضي عبد الواحد البجلي المتوفاة سنة ٤٤٧هـ، وخديجة الشاهجانية - ٤٦٠هـ<sup>(٢)</sup>، وفاطمة بنت الأقرع الكاتبة - ٤٨٠هـ<sup>(٣)</sup>، وفاطمة بنت الحسين بن فضلون الرازي - ٥١٢هـ وكان ممن روى عن أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن طلحة - مسند العراق المتوفى في سنة ٤٥٣هـ من النساء كمال بنت المحدث عبد البر بن السمرقندي وتركنا بنت عبد الله الدامغاتي، ونفيسة البرازة، وتجتى الوهبانية، وشهادة بنت الأبري<sup>(٤)</sup>.

وهكذا لم تمض خمس سنوات على مطلع القرن الخامس حتى يتوفى الحاكم - أبو عبد الله بن البيح النيسابوري صاحب المؤلفات المشهورة في الحديث التي أوصلها بعضهم إلى ألف وخمسمائة جزء وفي أولها «الصحيحان» بعد أن قضى ٨٤ سنة في التطواف<sup>(٥)</sup> والكتابة في الحديث.

ثم يتوفى بعد ست من هذا القرن - ابن فورك الأصبهاني النيسابوري - وقد بنى له أميرها محمد بن إبراهيم، الدار والمدرسة<sup>(٦)</sup>.

ثم يتوفى بعد سبع منه - أبو سعد بن عثمان النيسابوري الخركوشي - بنى

---

(١) هي أم سلمة المعروفة: بابنة البقال.

(٢) من أهل كشمين، قرأ عليها الأئمة كالحطيب وابن المطلب والسمعاني وأبي طالب الزيدى.

(٣) هي فاطمة بنت علي المؤدب الكاتبة على طريقة ابن البواب وأهلت لحسن خطها لكتابة عقد الهدنة إلى ملك الروم من الديوان العزيز وسافرت إلى بلاد الجبل إلى عميد الملك الكندري (المتظم ج ٩ ص ٤٠، والكامل ج ١٠ ص ٦٠، وابن الفرات ج ٧ ص ٥١).

(٤) انظر ترجمتها في السير للذهبي ج ١٢ ورقة ٤٣، وسبط بن الجوزي - امرأة الزمان ج ٨ ص ٢٢٤، وتاريخ ابن الفرات ج ١ ص ٦٥ وج ٧ ص ٤٣، وبغية التلمس ص ٢٠٦، ٢٠٧.

(٥) ابن عساكر - التبيين .

(٦) ابن عساكر - التبيين ص ٢٣٢.

فى سكنه المدرسة ودار المرضى ووضع فى المدرسة خزانة للكتب، وصنّف أعداداً من الكتب صارت تاريخاً لنيسابور<sup>(١)</sup>.

وبعد ثمانية عشر عاماً بنى - أبو إسحاق الإسفراينى - مدرسته التى لم يُبن نيسابور قبلها مثلها ودرس فيها وحدث وبلغ حدّ الاجتهاد لتبحره فى العلوم<sup>(٢)</sup>.

واشتهر غير هؤلاء عدد كبير فى هذه المدينة منهم: أبو بكر أحمد البيهقى - رحل إلى العراق والحجاز والجمال... وألف كتاب «معرفة السنن والآثار»<sup>(٣)</sup>. ومنهم أبو القاسم القشيري الذى كان يعقد مجلس الاملاء فى الحديث طوال ثمانية وعشرين عاماً من سنة ٤٣٧هـ حتى توفى سنة ٤٦٥هـ وكان يذيل أماليه بأبياته<sup>(٤)</sup>. وكان زاهداً متصوفاً حيث قلّ أن نجد محدثاً غير متصوف فى هذا العصر.

ونكتفى بعد هذا بمثلين فقط على محدثي بغداد وأصبهان فى عصر «النظام» أولهما: أبو بكر المعروف بالخطيب البغدادي، وكتابه الشهير بتاريخها، والذى يحتوى على عشرين مجلداً ضخماً. وقد ألفه لحصر تراجم المحدثين الذين وفدوا إلى بغداد أو ولدوا فيها والتعريف بهم إلى الدارسين وبخاصة رواة الحديث وعلميه<sup>(٥)</sup>. وثانيهما: كان من مشاهير المحدثين بأصبهان وهو «أبو نعيم

(١) التبيين ص ٢٢٤-٢٣٦.

(٢) التبيين ص ٢٤٤.

(٣) كتب الحديث وحفظه.. طلب منه الأئمة الانتقال إلى نيسابور لسماح كتاب «المتصوفة» وغيره من تصانيفه.. فوصلها سنة ٤٤١هـ وعقد له المجلس لقراءة الكتاب وحضره الأئمة والفقهاء وبقي حتى مات سنة ٤٥٨هـ (التبيين ص ٢٦٥).

(٤) كان هو المقصود بصحابة الكندري وشمته الأشاعرة (التبيين ص ٢٧١-٢٧٦).

(٥) كان يجتمع العلماء فى منزله بباب الشريف لقراءة التاريخ على الرغم من عيب بعضهم للتاريخ. أوقف جميع كتبه على المسلمين، وأخرجت جنازته من حجرة تلى المدرسة النظامية من نهر معلى سنة ٤٦٣هـ وتبعه الفقهاء وخلق عظيم (التبيين ص ٢٦٨: ٢٧١).

الحافظ» مؤلف حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الذى توفى سنة ٤٣٠هـ بعد أن يبلغ من السن أربعة وتسعين عاماً<sup>(١)</sup>.

وينبغى ألا تفوتنا ونحن نمثل لمشاهير المحدثين فى شرق العالم الإسلامى، الإشارة إلى عنايتهم بالرواة وتحقيقهم فى سير رجال السند من حيث الجرح والتعديل. وكان ممن ألفت فى هذا الموضوع أبو العباس النجاشى، المتوفى سنة ٤٥٠هـ<sup>(٢)</sup>، وقد اشتهر بكتابه فى الرجال.

## ٢- التاريخ:

ويحسن بنا ونحن نوجز القول فى العلوم النقلية أن نشير إلى التاريخ بوصفه واحداً من هذه المجموعة المتميزة فى هذا القرن.

والظاهرة التى بدت تتضح وتتخذ طابع الجنى والإثمار، بعد النضج والاختمار هى ظهور تواريخ المدن، وبذلك انتقل التاريخ إلى مرحلة الجمع بين الأشخاص وآثارهم بعد أن كان مختصاً بواحد منهما. وربما كان تدوين المؤرخين قبلهم فى المسالك والممالك، وتقويم البلدان مما عجل فى إخراج هذا اللون من التاريخ إلى الظهور، وكان أول ما يلفت النظر فى هذا الباب تاريخ «بغداد» للخطيب المتوفى سنة ٤٦٢هـ، وتاريخ «تلمسان» لابن الأصغر المتوفى سنة ٤٦٥هـ، وتاريخ «جرجان» لعلى بن محمد الجرجانى المتوفى سنة ٤٦٨هـ، وتاريخ «شيراز» بالفارسية لهبة الله الشيرازى المتوفى سنة ٤٨٥هـ، وتاريخ «همدان» لأبى شجاع محمد بن الحسن الهمدانى المتوفى سنة ٥٠٩هـ، وتاريخ «بيهق» بالفارسية لأبى الحسن على بن زيد البيهقى المتوفى سنة ٥٦٠هـ، ثم

(١) التبيين ص ٢٤٦.

(٢) هو أحمد بن على بن أحمد بن العباس من الإمامية الذين لا يشق لهم غبار فى علم الرجال (القمى - الكنى والألقاب).

تاريخ «دمشق» لابن عساكر فى ثمان مجلدات (سنة ٤٩٩-٥٧١هـ)، وتاريخ «أبيورد» للشاعر الأبيوردى المتوفى سنة ٥٠٧هـ، وتاريخ «سمرقند» للنفى المتوفى سنة ٥٣٧هـ.

وكان لهذه الكتب جميعها لونها الخاص فى أسلوب العرض، وفى التحقيق، والاستقصاء للأحداث يختلف عما كانت عليه المدونات التاريخية فى العصور التى سبقت.

على أن العصر لا يخلوا من مؤرخين عنوا بالتاريخ العام فألف - مسكويه - المتوفى سنة ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م ، الكتاب الذى عرف باسمه. ثم ألف كتاب «أنس الفريد» وهو أحسن كتاب صنّف فى الحكايات القصار والفوائد اللطاف. (١) ويصفها «ميتز» بأنها: «من نوع يغير كل المغيرة القصص القديمة التى ألفها ابن قتيبة» وصاحب كتاب «العقد الفريد»، ففها تجد لأول مرة الأسلوب القصصى الإسلامى (٢). وألف أبو الفضل البيهقى كتابه الذى اشتهر باسمه فى ثلاثين جزءاً دونّ فيها تاريخ دولة آل بكتكين من سنة ٤٠٩هـ / ١٠١٨م إلى سنة ٤٥١هـ / ١٠٥٩م لم يصلنا منه سوى جزء واحد ضمّم (٣).

ثم البيرونى - أبو الريحان محمد بن أحمد - المتوفى سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م صاحب كتاب «الأثار الباقية فى القرون الخالية» و«تحقيق ما للهند من مقولة» والذى يعتبر بكتابه هذا من أعظم المؤرخين فى العقائد والديانات بل فى تاريخ المعارف الإنسانية عامة بأسلوب تحليلى معلل.

(١) ميتز - الحضارة ص ٤١٩ عن تاريخ الحكماء للقفطى ص ٣٣١.

(٢) نفس المرجع.

(٣) قام بترجمته الأستاذان «د/ يحيى الخشاب وصادق نشأت» مع تحقيقات وشروح قيّمة سنة ٩٥٧هـ.

### ٣- البلاغة والنحو:

لقد كان القرآن - بحق - هو محور الحركة الفكرية خلال القرون الخمسة الأولى من تاريخ حضارة العرب الإسلامية وكان قطبا هذا المحور هما: البصرة والكوفة، بينما كانت نقطة المركز هي بغداد عاصمة الخلافة.. ومن هذا المحور «الدينامي» شعت أنوار النهضة العلمية نحو الأطراف في الشرق والغرب. الشرق في خراسان وما وراء النهر وفارس، والغرب في سوريا ومصر والأندلس حتى قال الصاحب بن عباد: «هذه بضاعتنا ردت إلينا» حينما تأمل بكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٣٨هـ. ولم يكن ابن عباد هذا عربياً في نسبه وإنما كان عربياً في لغته وثقافته، وكان يعتز بهما اعتزازه بأصله وحسبه.

وعلى هدى من هذا نستطيع القول بأن الكتب البلاغية للغة العربية التي ظهرت في هذا العصر والذي يليه إنما هي من ثمار بغداد ونظاميتها بالذات، وإن كان مؤلفوها من أصبهان أو جرجان، إذ كانت العربية لغة الأمة الفاتحة وثقافة الدين الإسلامي هي اللغة السائدة في كل بلد تصل إليها يد تلك الأمة، ويرفرف على ربوعها علم ذلك الدين. واضطرت اللغات التابعة إلى أن ينطوى بعضها على نفسه، وأن ينضوى بعضها الآخر تحت لواء اللغة الظاهرة، فظلت العربية بمجموعة علومها وفنونها هي طابع هذا العصر كما كانت من قبل.

ونالت هذه اللغة عناية فائقة من المعلمين على اختلاف درجاتهم.. فبحثوا عبارتها وأسلوب الصياغة في جملها وفقراتها، كما درسوا مفرداتها واشتقاق ألفاظها، فكان النحو والصرف والبلاغة، وألّفوا المطولات في كل واحدة من هذه الفنون.. وكانت البلاغة التي هي جماع فنون اللغة العربية وموطن أسرارها - موضع اهتمام عملية المثقفين في هذا العصر، فينبغ - ابن سنان

الخفاجى المتوفى سنة ٤٦١هـ وعبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١هـ،  
والراغب الأصفهانى المتوفى سنة ٥٠٢هـ، والزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨هـ. .  
ويخلفون لنا من مؤلفاتهم: «سر الفصاحة» و«أسرار البلاغة» و «دلائل  
الإعجاز» ثم محاضرات الأدباء والمفردات. . فأساس البلاغة والكشاف والمفصل  
وربيع الأبرار التى مازالت من أمهات المراجع فى أصول النقد الأدبى وفن القول  
خلال عشرة قرون، والتى لم يؤلف مثلها حتى اليوم. . كما ترك بعض هؤلاء  
دواوين شعرية إن قلت ضخامة عن كتبهم النثرية، فإنها لا تقل نفاسة  
وجودة عنها.

وقد ضمنّ الزمخشرى كتابه «المفصل» شرحاً سهلاً لآراء النحاة واختلاف  
مذاهبهم فى عشرة أجزاء ضخام، كما فسّر فى كتابه «الكشاف» «آى القرآن»  
تفسيراً بلاغياً وكشف عن أسرار الإعجاز فيه وفى العربية معاً. وبذلك توصل  
إلى وضع كتابه «أساس البلاغة».

وكان من ظواهر العناية بالمفرد والجملة والتلاعب باللفظ والبراعة  
فى تتيق العبارة أن نقرأ مقامات الحريرى البصرى المتوفى سنة  
٥١٦هـ، وأمالى بن الشجوى المتوفى سنة ٥٤٢هـ وصاحب كتاب  
الحماسة.

وبذلك حفل هذا القرن (عصر النظام) بمؤلفات ضخام فى النحو إلى  
جانب البلاغة مما لم يشهده القرن الرابع، حيث لم نر فيه سوى تلخيص  
لمفصل وتفصيل لمجمل أو شرح لمبهم<sup>(١)</sup>، فمن أبرز الأمثلة على ذلك كتاب  
- المفصل - السابق الذكر فى عشرة مجلدات، وكتاب - العوامل للمائة للجرجانى  
والعوامل والهوامل لشاعر الحرمين المجاشعى.

(١) عبد الرزاق محبى الدين - أدب المرتضى - رسالة دكتوراه. فى جامعة القاهرة.

#### ٤- الأدب:

لقد كانت المثلُ العليا وأبطالها هي هدف الشعراء في كل زمان، ولاختلافها في كل عصر ومصر فقد اختلفت أغراض الشعر باختلاف الأزمنة والأمكنة . وقد ظل الدين والفضائل التي ينشرها هي المثل العليا التي يتغنى بها الشعراء، وبقى الحكام والوجهاء الذين يمثلونها أو يحمونها سواء تخلقوا بها أم ببعضها هم أبطال الشعراء . ومن ثمة نشأ «الأدب الوصولي» أدب القصور الذي ينبض بمشاعر جلّها زائف وينطق عن أخيلة معظمها قريب أو تافه . .

وأما من حيث الأسلوب فلم يسع الناظمون إلى ابتكار أو تجديد في وزن أو قافية وإنما عكفوا على هيكل القصيدة لا يتخطونه قيد أمثلة وجمدوا على التعابير والمفردات والتشبيهات يرددونها بعد أن عاشوا طويلاً في رحاب المعاجم وظلال الدواوين واستوعبت حافظتهم الكثير منها . . وبذلك زاد الشعر صنعة والنثر تكلفاً عما كانت عليه في العصور الفائتة وبذلك دخله الحوشى والألفاظ العامية والأخيلة السقيمة والعبارات الركيكة .

وأدب القصور أو الأدب الوصولي يختلف ولاشك - عن غيره من ألوان الأدب في طابعه ومعانيه كما اختلف في واقعه وأغراضه . هو أدب ترف وتسلية قد يكون من دواعيه المنافسة والدعاية والمال والجاه وإشباع غرور الممدوح وأطماع المادح معاً . . وقد تكون هذه جميعاً . . فهو لهذا كان أكثر التزاماً بالأسلوب والزخرفة بالمحسّنات البديعية، وأشدّ اهتماماً بالألفاظ المنتقيات وتلوينها بالجناس والاستعارات، لأن تلى المترفين في ندواتهم بالألفاظ وتمتعهم بجمال انسجامها وحنن تنسيقها لا يقل عن تلذّذهم في ندواتهم بشرب الراح وانتظام أدواته، وسماع الموسيقى وتنظيم آلاته .

وقد يكون لرأى الجاحظ في البيان والتبيين: «إن المعانى في السوق لمن يشاء أن يتناولها وإنما التفاضل في تصويرها». وقد يكون لزعم عبد القاهر الجرجاني -

إمام النقاد فى هذه الفترة: «أن التفاوت إنما هو فى نظم الكلام»<sup>(١)</sup>. حتى بدأ الشعر فى هذا العصر وما تلاه من عصور. صناعة فى اللفظ، وصياغة فى العبارة. قد يكون لمذهب هذين فى النقد والأدب ما يبررهما من أثر لجمال الأسلوب فى النفس، غير أنه لا يعدو أثر الأصباغ والمساحيق فى الصورة، وأنه قيد العاطفة عن الانطلاق إلى عالم الإبداع فى المعانى والأخيلة البعيدة.

وقد يقال إن أدب المناسبات، وبخاصة شعر القصور، صائرٌ إلى الفناء عاجلاً أو آجلاً، لأنه لا يعبر عن عواطف إنسانية مشتركة، غير أن هذا اللون من الشعر وإن خلق لهذا المصير كبعض الفنون والآداب إلا أنه لا يخلو من أخيلة شعرية ومعانٍ إنسانية ستبقى ما بقيت هذه على قيد الحياة، وسيؤثر بها الناس فى حياتهم اليومية مادامت أحاسيسهم بها.

ولهذا نستطيع القول بأن أدب القصور هذا لا يخلو من الفكرة السامية والخطرة العالية والعبارة المشرقة والأسلوب الرقيق، ولشعرائه فى غير «الأدب - الوصولى» - جولات فنية حلّقوا بها فى أجواء خيالية واسعة فجاءوا بالمعنى الفريد والتعبير الجديد حتى ليخيل إليك وأنت تنشدهم - وما أكثرهم وما أكثر ما قالوه فى هذا العصر - إنك فى أزهى عصور الشعر العربى، وهو خيال أقرب فى حقيقته إلى الواقع إذا تذكرت أبا العلاء المعرى والأبيوردى والباخرزى.

هذا ما كان من أمر الشعر العربى، أما الفارسى فقد بلغ الذروة بعد أن مرّ بأدوار نمو وانتعاش تدريجية بدأت فى عهود الدويلات القومية الطاهرية والصفارية والسامانية ثم ازدهر فى عصر الغزنويين وبخاصة فى عهد «محمود» فكان من شعراء بلاطه العنصرى والمجدى والفرخى ثم انضم إليهم الفردوسى صاحب الشاهنامه، حتى بلغ من تقدم الشعر أن صار ينظم ارتجالاً وأن يجد له سوقاً رائجة. . فليس غريباً أن نجد - بعد مرور

(١) الغزوينى - آثار البلاد - مادة طوس ٤ عند ترجمة الفردوسى.

تلك الأطوار - وما لابسه من ظروف سياسية زادت شعور الحاكمين رعاية للشعراء الحماسيين، ما لامسه أثناءها من ثقافات مختلفة... ليس غريباً أن نراه - بعد ذلك كله - أدباً شائقاً فى مادته بعيداً فى أخيلته سامياً فى معانيه، إذ إنه كان ثمرة تلك الأطوار الثقافية و خلاصة تلك الثقافات المتنوعة .

والذى يلحظ فى هذه الحقبة من تاريخ الأدب فى الشرق الاعتزاز بالعربية وافتخار الأدباء من الفرس بحيث نظموا بها، حتى أبدع لهؤلاء لقب - ذوى اللسانين - واشتهر بذلك طائفة كبيرة منهم بحيث أطلق لقب - أمير اللسانين - على الأديب أحمد بن الحسين الداريج . وقد كان من ولع بعضهم بالعربية أن ترجم المنظوم الفارسى إليها، وحفظت لنا المجاميع المحفوظة والمطبوعة من هذا الثقبيل أمثلة كثيرة على الشعر الرائع فى معناه الدقيق فى نقله .

وكثر عدد المغرمين بالعربية من الفرس حتى قلّ أن نجد أديباً فارسياً لاينظم بالعربية حتى عقد «ابن فندق» فصلاً للشعراء ذو اللسانين فى كتابه «بيهق» وحدها فكان عددهم يربو على العشرين وكانوا يتفننون فى النظم باللغتين تفنناً يختلف باختلاف نزعات الشعراء الفنية، وكفايتهم اللغوية وقدرتهم على النظم... فمنهم من نظم القصيدة فى بيت فارسى وآخر عربى، ومنهم من نظمها فى مصراع فارسى وآخر عربى ومنهم من جمع بين اللغتين فى الشطر الواحد فقال بعضهم مثلاً<sup>(١)</sup>:

يا أهل جَلين احفظوا آيتكم وذروا التبخر وانقلوا سر قينكم

وقال آخر:

زدى اندرد لم أتشى نكارا ولم ترحم فؤادا مستعارا  
على أن هذه الظاهرة الأدبية لهذا العصر لم تكن خاصة بالفرس وحدهم،

(١) ابن فندق - تاريخ بيهق ص ٢٤٤ .

وإنما شاركهم فيها العرب كذلك فشهدنا منهم من أجاد الفارسية وألف بها ونظم، وعند الفريقين كان الطابع العربى بكل خصائصه ومميزاته هو الذى يتجلى فى الكتاب والديوان.

وكان لكل بلاط فى هذا العصر شعراؤه، ولكل نادٍ جلساؤه فإن لدار الخلافة شعراء معروفين يمتدحونهم ويُعلنون من شأنهم فى المناسبات كما للسلطين والخلفاء..

\* \* \*